المرأة والرواية في الجزائر

أ . فاطمة مختاري

المركز الجامعي بتمنراست

لم يكن من الغريب أن تطرق المرأة العربية باب الرواية، فحياة المرأة في حد ذاتها في كل زمان و مكان رواية طويلة، يصعب على أي قلم التعبير عنها أو البوح بها. ولكن المرأة الموهوبة –فقط– هي التي تستطيع التعبير والإمساك بخيوط أحداث متشابكة، تنسجها... وتتلاعب بخيوطها وأشكالها ومغزاها. وتاريخ الأنثى العربية في علاقتها بالممارسة الأدبية يعد تأكيدا ضمنيا لحقيقة، أصبحت اليوم مسلمة نظرية، وهي أن المرأة العربية لم تكن مصابة بالعقم بل، وأن الصمت الإبداعي الذي توصف به –أحيانا– ليس خاصية جوهرية محددة لكينونتها، بل إن حالة العبودية التي أنشأنا عليها نسائنا أتلفت مواهبهن العظيمة و قضت على قدراتهن العقلية، فحياة المرأة تنقضي كما تنقضي حياة النبات.(1)

بالرغم من هذا الوضع المرتبط بعلاقات الإنتاج السائدة التي تحدد ظروف المرأة، والتي تمثلت في حالة من العبودية التي نشأت عليها، فإننا نجد أن الحياة الأدبية عرفت كثيرا من الأدبيات اللواتي ظهرن في أحلك عصور التاريخ، و قد ظهرت كاتبات عربيات كن رائدات في مجال الرواية في القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين من بينهن : أليس البستاني "صائبة" (1891)، لبيبة هاشم "حسناء الحب" (1898)، زينب فواز "حسن العواقب" (1899)، عائشة التيمورية "نتائج الأحوال في الأقوال و الأفعال" (1887).(2)

وقد تزامنت مع هذه الأعمال ظهور الصحافة النسائية مثل مجلة "الفتاة" الشهرية التي أنشأتها هند نوفل في الإسكندرية (1882) و غيرها من المجلات التي عبرت عن الوعي المحدث سواء في تأكيد دور المرأة المهتمة بقضاياها أو تأكيد الحضور الإبداعي للمرأة.

أما في الجزائر فقد تأخر ظهور الرواية إلى فترة بعيدة مقارنة بالمشرق العربي، ودلك يعود إلى ظروف الاستعمار الذي كانت تعيشه الجزائر منذ 1830 حتى 1962، حيث ظهرت في هذه الفترة أجناس أدبية أخرى كالشعر والمقال الصحفي، والقصة القصيرة، و قد اهتمت مضامينها بالثورة و الكفاح المسلح. و هكذا جعلت تلك الظروف الخاصة من الأدب [illegible] لأنه كان يعده سلاحا من أسلحة معركة التحرير ضد الاستعمار

ارتفعت أصوات هنا وهناك – خاصة من النسوة المتعلمات في المغرب: "لتكسر وصاية الخطاب الخاضع للمواضعات الموروثة، أو الذي يغرق خصوصية قضية المرأة في مطالب تجريدية تنادي بتغيير المجتمع وتثويره وهكذا .."(6).

ومنذ أواخر السبعينات ظهرت في الجزائر أقلام نسائية جديدة مثل أحلام مستغانمي وزينب الأعوج. وبدأت في مجال الكتابة الأدبية تظهر ملامح المرأة الجزائرية المغيبة من قبل في ثنايا الخطابات السياسية، وتتبلور من خلال النصوص التي تقترب من الأعماق والمشاعر والنزوات الأحلام والتمردات المكبوتة.

وقد أسهم الخطاب الأدبي الإبداعي للمرأة الجزائرية و لا يزال إلى جانب الدراسات السوسيولوجية والسياسية، في إضاءة مسيرة المرأة بوصفها إنسانة أنثوية، لا مجرد رمز اجتماعي له دور هامشي في حياة مجتمع يسيطر عليه الذكور.

إن وضع المرأة العربية متشابه –في مجمله– من شرقه إلى غربه، وهذا يعني أن المشكلة الأولى لدى الكاتبات هي التعبير عن رؤية أنوثتهن لا كعتبة جسد، ولكن كعتبة تعبير فقد بلغن مستوى ثقافيا يسمح للمرأة عموما إدراك لغة جسدها، وطبيعته ومتطلباته، لكنها لم تستطع إيجاد جسد كتابي يترجم كل ما أدركته بعقلها و حواسها كامرأة. وهذا التحدي كان منطلقا لكتابة أنثوية جديدة عند المرأة .

ظهور الرواية النسائية الجزائرية :

لم تعرف الساحة الأدبية في الجزائر ظهور الرواية إلا مؤخرا، بحكم الظروف الاجتماعية والسياسية التي كانت تمر بها، فالرواية النسائية لم تظهر إلا في التسعينيات من القرن الماضي، غير أنها استطاعت –رغم قدر من التأثر بالفكر الفرنسي– أن تثبت نفسها في عالم الرواية، وتعبر عن تمرد بعض هؤلاء الكاتبات على بعض التقاليد السائدة من ناحية وعلى الرجال من ناحية أخرى. وأغلب الكتابات النسائية كانت باللغة الفرنسية، فما كتبته الكاتبة الجزائرية بعد الاستقلال، له صياغته التاريخية و نسقه المعرفي في ظروف لم تحسم فيها إشكالية اللغة كأداة تعبير فارقة في الأدب.

كما ظهرت بعض أسماء يكتبن باللغة العربية لم يرق إبداعهن إلى مستوى ما كتب بالفرنسية، و لم يضفن شيئا للمخيلة الإبداعية العربية، ولم تكن الأطروحات عميقة أو متجاوزة إلى مرحلة التسعينات، فبرزت أصوات جريئة مثل : أحلام مستغانمي، وربيعة جلطي، وزينب

الأعوج، تمارس الكتابة بالعربية، وتطرح قضايا المرأة بشكل تقليدي دون التعمق فيها والبحث وعن حلول وآفاق مستقبلية لها.

وقد جاءت التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر "شحيحة" سواء من حيث الكم أو الكيف خاصة ما هو مكتوب باللغة العربية، واتصفت تقريبا بما اتصفت به التجربة الإبداعية في الوطن العربي"(7)، فمثلا يغيب عن مضمون القصة النسائية –بوجه عام– أن قمع المرأة يرتد إلى عامل اجتماعي في أساسه، ويضرب جذوره في تقسيم العمل القديم قدم المجتمعات الطبقية التي استغنت عن دور المرأة في الإنتاج، وحولتها إلى لعبة في متحف الإقطاع، حيث تسلى وتمتع وتنجب، مما أدى إلى اختزالها في جسد ومتعة، وتجريدها من أسلحة الفكر والعمل الاجتماعي المنتج التي تشكل الضمانة الوحيدة للحرية الاستقلال الذاتي.

أما عن وجود الكتابة الروائية في الجزائر لدى المرأة بعد الاستقلال مباشرة، فنلاحظ خلو الساحة الثقافية من الصوت النسائي، اذا استثنينا المجموعة القصصية التي كتبتها زهور ونيسي "الرصيف النائم" 1967، وبعض الكاتبات اللاتي كان لهن شرف التعبير عن كفاح الشعب الجزائري في وقت استوعبت فيه الثورة الجزائرية كل المجالات حتى مجال الأدب.

من هنا كانت ولادة كاتبات الرواية العربية في الجزائر مرتبطة بالوضع الثقافي والتاريخي، إذ لم تظهر أول رواية نسائية مكتوبة باللغة العربية إلا بعد الاستقلال لأكثر من عشر سنوات، وهذا يعني أن هناك بعض التحولات التي حدثت في وضع المرأة من خلال اكتسابها لعناصر وعي جديدة، جعلتها تدرك قيمة التحرر والمساواة و كسر تبعيتها لسلطة الرجل، وتعرضها لنسق جديد في الحياة بعد الاستقلال حظيت فيه بالتعليم وإمكانات العمل. وهذا التعليم لا يعني أن المرأة الكاتبة ذهبت مباشرة إلى الرواية لتدعيم مطالبها في المجتمع، ولكن ما حدث هو أنها اكتشفت أن القلم له سلطته المؤثرة من جهة،

و من جهة أخرى "يكتسب فعل الإبداع قيمة خاصة لدى المرأة الكاتبة باعتباره وسيلة، تمكنها من تبرير المجتمع أعرافا ومحظورات، و من ثم تمثل الكتابة أفق خلاص، وعملية تحرر من حيث أنها موضوع للتجربة والمعاناة والحاجات والتصورات والأحلام... في ثبات أوسع".(8)

و لعل تأخر ظهور الرواية النسائية في الجزائر يعود لعدة أسباب من أهمها:

1 –القمع الرجالي للنساء و تعطيلهن عن ممارسة حياتهن و خياراتهن بحرية، و تحديد وظيفتهن بالعمل المنزلي و تربية الأولاد.. في واقع محافظ تقوم فيه المرأة الأنثى بدور جارية و

2 – تعرض المجتمع الجزائري لاستعمار طويل تجاوز القرن مما جعله يغوص في عوالم الفقر و الجهل، بحيث لم يكن الإبداع هاجسا له أهمية مثل هواجس أخرى كالعيش الكريم، و الحياة المستقلة.

3 – الخوف من اختراق المحظور من أعراف اجتماعية و عادات وتقاليد متوارثة لا علاقة لها بالدين. أو قوانين المجتمع.

4 – تضحية المرأة من أجل قضايا أخرى مثل رعاية العائلة، ومناصرتها للرجال من أجل النضال ضد الاستعمار ورعاية الأسرة.

5 – مارست المرأة الإبداع بعد خروج الاستعمار بشكل متأن تفضيلا للآخر على نفسها، و هذه تضحية أخرى حسب ما تلقته من قيم تربوية انطلاقا من تعاليم البيت والمدرسة. و الحراك الاجتماعي.

في إطار الصراع المستمر مع هذه الظروف، ولدت الكتابة النسائية بالغة العربية في الجزائر مع انزياح المستعمر، وولد النص النسائي الذي لم يستطع أن يأخذ شكل الرواية إلا بعد محاولات متكررة.. وفترة زمنية بعيدة نسبيا. وإذا كانت قضية التعريب قد أخذت مرحلة زمنية طويلة.. فإن الكتابة الإبداعية بالعربية كان ينبغي أن تأخذ فترة زمنية أطول. (9)

هكذا يتضح أن القضية النسائية في الجزائر بدأت بداية بسيطة ساذجة من حيث الشكل و المضمون، فمن حيث الشكل كانت خطابية النبرة مهزوزة الصورة، ضعيفة الحبكة و الإحكام الفني، أما من حيث المحتوى فقد كانت منبرا ووسيلة للوعظ والإرشاد و الإشادة بالمعاني الوطنية والأهداف السياسية.

وقد كانت إسهامات المرأة الجزائرية في القضية متأخرة، مقارنة بالقضية الرجالية التي تعود إرهاصاتها الأولى إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية (1945)، في حين تأخرت البداية الحقيقية للمحاولة القصصية النسائية إلى سنة 1955، مع أول صورة قصصية لزهور ونيسي.

و نقدم في ما يلي بيانا توضيحيا لأهم القاصات اللاتي يمثلن الرائدات في مجال القصة النسائية في الجزائر.

قصص مرحلة النشأة :

الكاتبة	القصة	الناشر	سنة
زهور ونيسي	الرصيف النائم	مجلة آمال- الأول	1967

زوليخة السعودي	من البطل	مجلة آمال- السادس	1969
زوليخة السعودي	عرجونة	مجلة آمال- (10)	1974
زهور ونيسي	على الشاطئ الآخر	مجلة آمال- (22)	1977
جميلة زنير	حب في القرية الوديعة	مجلة آمال- (30)	1980
جميلة زنير	دائرة الحلم والعواصف	جريدة الشعب (24 ديسمبر)	1983
جميلة ضمار	الحلم والكابوس	مجلة المساءلة	1985

من خلال هذا الثبت نلاحظ أن الكاتبة زهر ونيسي كانت رائدة في كتابة مثل هذا الجنس الأدبي في الجزائر، و فتحت الباب على مصراعيه لباقي الكاتبات، و إن كن قلائل، نظرا للتقاليد الاجتماعية التي كانت تنظر إلى المرأة نظرة دونية شهوانية، و ترى أن وجودها في الحركة الاجتماعية قد يثير الفتنة، يشجع على الانحلال، و من هذا فرضت عليها ظروف العزلة والتهميش، فتجمدت طاقاتها الإبداعية و الفكرية .ومشاركتها في مسيرة المجتمع.

أما إسهامات المرأة في مجال الرواية المكتوبة بالعربية، فقد جاءت متأخرة نوعا م مقارنة بالقصة القصيرة، لحداثة هذا النوع الأدبي نسبيا في الجزائر، وكما ذكرنا سابقا فإن لجوء الكاتبة إلى الرواية يعود لأسباب منها : اتساع مجال البوح في الرواية عنه في القصة وقدرة الرواية على استيعاب العديد من القضايا التي كانت تشغل الكاتبات والمجتمع في ذلك الوقت.

وعدد كاتبات الرواية في الجزائر محدود، و ينحصر في أسماء بذاتها مثل : زهور ونيسي ، وأحلام مستغانمي، جميلة زنير ، وفاطمة العقون، وفضيلة الفاروق ...وغيرهن.

وهذا جدول بأهم كاتبات الرواية العربية في الجزائر و بيان بأعمالهن.

الكاتبة	القصة	الناشر	السنة
جميلة ميمون	الأمية	مجلة آمال- (38)	1997
زهور ونيسي	من يوميات مدرسة حرة	مركب الطباعة	1997
أحلام مستغانمي	ذاكرة الجسد	المؤسسة الوطنية للفنون	1993
زهور ونيسي	لونجة والغول	مركب الطباعة	1993

زكية علال	عروس إلى القبر	المؤسسة الوطنية للفنون	1996
فاطمة العقون	رجل وثلاث نساء	منشورات الجاحظية	1997
فضيلة الفاروق	مزاج مراهقة	دار الفارابي، بيروت	1997
فاطمة العقون	عزيزة	منشورات الجاحظية	1998
جميلة زنير	أوشام بربرية	الرابطة الوطنية	2000
ياسمين صالح	بحر الصمت	منشورات الإختلاف	2001
زهرة ديك	في الجبة لا أحد	منشورات الإختلاف	2002
أحلام مستغانمي	عابر سرير	منشورات أحلام مستغانمي	2003
ربيعة مراح	الشاذ	وزارة الاتصال والثقافة	2003
زهرة ديك	بين فكي الوطن	منشورات الجاحظية	2003
فضيلة الفاروق	تاء الخجل	وزارة الثقافة معهد الفنون	2004

الهوامش:

1 - رشيدة بن مسعود : المرأة و الكتابة، سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف أفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ط2، ص15.

2 - بثينة شعبان : مائة عام من الرواية النسائية العربية، دار الأدب بيروت، 2000، ص 45.

3 - عايدة أديب بامية : تطورات الأدب القصصي الجزائري، ترجمة محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص 312.

4 - طه وادي : صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف القاهرة، 1994، ص 27.

5 - شكري عياد تجارب في الأدب والنقد ط1 الكاتب العربي 1977 ص 373.

6 - محمد برادة ذاكرة للمستقبل موسوعة الكاتبة العربية، المجلس الأعلى للثقافة ج3 القاهرة 2002 ص 1.

7 - احمد دوغان: الصوت النسائي في الجزائر، مجلة أمال الأدبية، الجزائر، 1982 ص 8.

8 - بوشوشة بن جمعة: الرواية النسائية المغاربية، مؤسسة سعيدان، تونس، ط1، 1999 ص 20.

9 - طه وادي: الرواية السياسية، دار لونجمان، القاهرة، 2003 ص